الرماد

قصة بقلم سعيد سلام

سبعة اشخاص ... لا انهم ستة فقط ، ولن احسب هذا المتحدث الجالس الان على رأس المائدة ، شخصا يتمتع بكيان كامل لاي شخصية جديرة بالاحترام والتقدير ، يجلس الان الى مائدة العشاء ، وقد فرغوا منه منذ ساعة او حوالي ساعة ونصف . كلهم منتبهون ومنساقون الى الاستماع اليه وغارقون في حكايات وقصص هذا المخادع الكبير. انتبهوا اليه ايها السادة ، انه لص ... لص كل شيء جدير بالسرقة او ليس جديرا بها ... انه يسرق عقولكم الان .

من السهل علي انا التي خبرت هذا الشخص ، واكتويت بناره ، وحطم حياتي المتواضعة من قبل ، ان اعرف الصيد الذي يريد ان يرمي عليه شباكه ... هذا هو الصيد ... هذه الحسناء التي مات زوجها منذ شهرين تقريبا ، وتتشح بالسواد الان ، ان جمالها يضيء الحجرة . ليتني استطيع أن اقول للرجال جميعا « لا تتزوجوا النساء اللاتي يبدو جمالهن فاتنا في الملابس السوداء . » انه لا ينظر اليها ابدا ... ينظر الى الجميع ويتحدث معهم واحدا وواحدة ، الا هي ... الا الصيد الذي يريد ان يرمي شباكه عليه . هل هو يحكي الان صفاقته ؟ ... ابتذاله ؟ ... كلا .. ان له القدرة على ان يحيل قصصه المبتذلة والصفيقة الى نوادر واقاصيص شجية ، حدثت لاشخاص جمعته بهم امسيات ساهرة . ان كل شخصية وبطل قصة من اقاصيصه تأخذ بلب الجميع وتسحرهم ، ويودون ان يعرفوا هذا البطل. يا لهممن مساكين، انهم لا يعرفون ان كلهذهالاقاصيص هو بطلها الاوحد ، وما عداه فهم ضحاياه .

تفضلوا، هذه هي القهوة ايها السادة.ودرت بالقهوة علىالجميع.ما عدا السيدة الحسناء التي رفضت ان تتناول قهوة في المساء. وددت وانا اعطي لمحدثنا الصفيق القهوة ان اسكبها عليه ، حتى يظهر لحظة امام الجميع على حقيقته ملطخا بالسواد . لاحظ ... العنكبوت المهذب ! ان الحسناء لم تتناول قهوتها . وضع امامه فنجانه ، ورشف منه رشفة واحدة ، وقام بحركةامتعاض خفية ، لم يلحظها احد الا الحسناء الحزينة ، ولم يقترب منه بعد ذلك . يا الهي .. كم هو فاجر . بذيء . سريع اللمحات . انا التي اقول عنه انه مثل العنكبوت. وفاجر . وصفيق . ولكن كل الذين يعرفونه معرفة عابرة ، امثال هؤلاء الجالسين معه الان ، لا يدور بخلد اي منهم ان يكون هذا الرجل الجذاب ، صاحب الملامح الدقيقةواللمحات السريعة ، والكلمة المهذبة الساخرة ، لا يمكن ان يكون هو صاحب تلك الصفات البذيئة . صدقوني انا . انا التي خبرته عن كثب وعرفته جيدا . لا يحلو له قضاء يومه الا وهو ينسج خيوط شبكة لفريسة جديدة . مسكينة تلك الضحية القادمة . تلك الفريسة التي وقعت بين خيوط العنكبوت الداهية القوية . ومن الغريب اني سمعته مرة يعجب من ان الناس لا تحبمنظر العنكبوتفهو يحبه كثيرا بل يعشقه . انه لا يعلم انه يعشق ذاته . غدا سوف يلفظ ذلك العنكبوت فريسته بعد ان يمتص دماءها ،ويتركها نفاية . اني اعرف كيف سليفظها . سوف يحمل جثتها المتعفنة بين يديه الرقيقتين الحانيتين ! ويضعها بجانب حائط وينحني لها باجلال واحترام ، ويتراجع خطوات الى الوراء ثم يتلاشى ، وكأن الارض قد انشقت وبلعته . اقسم لكم لو ان الارض انشقت وبلعته لتلفظن جثته بعد ثوان من رائحتها الكريهة ..

لست ادري هل مثل هذا الشخص هو الذي يستطيع ان يملأ حياتي الخاوية الان . انه متحدث ظريف . احاديثه كلها ذكاء ومهذب . كلها صفات كان زوجي المرحوم محروما منها . هل يستطيع مثل هذا الشخص ان يعوضني اياها ؟!!! ان كل صفاته مناقضة لصفات زوجي المرحوم . وبطبيعة الحال لا يهمني ان يكون هذا التناقض قد اكتمل في قدرته المالية ... لا يهم ذلك . انه ما تركه زوجي يكفيني ويكفيهطيلة عمرينا . ولكن ... كيف ؟ اني اراه غير مكترث بوجودي .. اذهبي عني ايتها الافكار الخبيثة . يكفيني منه احاديثه تلك الليلة ، وليبتلعه الطوفان .

ايها اللعين كفاك ما تفعل . من يستطيع ان يعطيني الان سلاحا انهي به حياة هذا الشخص ؟ اه لو كان حذائي يكفي لسحق هذا العنكبوت الكبير . اسمعوا معي ماذا يقول : « نعم هذا هو الرأي الصواب ، لقد كنت امس عند صديقي الحميم الاستاذ احمد الطلياوي المحامي الكبير كما تعرفون جميعا ، وعلق على تلك الجريمة بمثل هذا الرأي . »

لقد استطاع هذا اللعين ان يجعل الجميع يشتركون في الحديث عن الجريمة التي حدثت هذا الاسبوع في احدى حواضر القاهرة ،وما زالت جرائد الصباح تتكلم عنها كل يوم . ومن يستطيع ان يقول ان احمد الطلياوي المحامي الكبير هو صديق له . اتدرون لماذا ؟ اقسم لكم انه يعرف ان تلك الحسناء الحزينة في حاجة الى محام كبير يساعدها في ادارة شئون زوجها المتوفي وحصرها . واختلق العنكبوت هذا الحديث حتى يعطيها الفرصة او المناسبة في تجاذب الحديث معه .

رنين متقطع .. رنين . رنين .

ـ صباح الخير

ـ صباح الخير يا افندم .. مين حضرتك ؟

ـ الم تعرفني !!

ـ آسف

ـ تستطيع ان تتذكر

ـ لو كنت استطيع الا اشك في ان ام كلثوم سوف تحدثني ذات صباح ، لكنت قلت لك انك هي !!

ـ اتشبهني بامكلثوم !! بالله عليك . لماذا ؟

ـ لاني لم اسمع صوتا فيهجمال صوتك وحلاوته منذ ان ولدتني امي . ومعذرة لذلك .

ـ لا ... لقد استمعت الى هذا الصوت قبل ذلك

ـ لا اتذكر

ـ انسيت جلسة امس اللطيفة ؟!!

ـ وكيف انساها ... نعم . نعم . لحظة واحدة واقول لكمن انت.

وترك شفتيه تنفرجان في تلك اللحظة ، وسقط منها نصفسيجارة، وداسها بقدمه . مسكينة تلك السيجارة ، لقد هرسها بقدمه وبرزت احشاؤها ولوثت ارضية الحجرة اللامعة النظيفة .

ارى اني سوف اسبح مع الاماني اذا قلت انك صاحبة الوجه الملائكي الحزين الفت هانم . وان كنت قد رسمت هذا الصوتعلى اجدر انسانة تستحقه من الموجودات في سهرة امس ، لاني لا اتذكر انني قد استمعت الى صوتك . ربما كنت تضنين به علينا امس .

ـ لا اماني ولا يحزنون . انا من تخيلتها يا صاحب الخيال الواسع.
ـ اذن اني في غاية السعادة ، وعبد المطيع من هذه اللحظة، بماذا تأمرين يا سيدتي ؟ .
ـ لي رجاء بسيط سوف احمده لك ، هل تستطيع ان تقدمني الى صديقك احمدي الطلياوي ، لان لي مشاكل قانونية ارغب في ان يتولاها مثل هذا المحامي القدير .
ـ هذا مطلب بسيط . من هذه اللحظة اعتبري ان الاستاذ احمد الطلياوي وكل اصدقائه تحت امرك يا سيدتي .
ـ اشكرك وسوف اتصل بك غدا . حتى تكون قد اخذت لي موعدا نذهب فيه معا الى الاستاذ احمد الطلياوي .
ـ وانا في انتظار مكالمتك غدا يا سيدتي . وتأكدي انه سوف يكون لك الصديق الوفي قبل ان يكون وكيلا لك في شئونك القانونية .
ـ اشكرك والى اللقاء غدا .

ليلة لطيفة جاءت بثمارها سريعا . لم يضايقني امس الا دخول تلك الخادمة الملعونة عدة مرات بلا اسباب قوية . اكره نظراتها الحادة التي كانت تسلطها علي امس . اكرهها منذ امد طويل .

انه لطيف مهذب . اية اقدار سعيدة جمعتني به مساء امس . اه ليتني كنت عرفته قبل ..... لا يهم الان ذلك ... ما هذا ؟!! هل طيفه سوف يسيطر على فكري الى هذا الحد ؟! لا ... لا .. سوف يقدمني الى الاستاذ احمد الطلياوي ، وبعدها لن اراه . وحتى صوته لن اسمعه في التليفون ؟!! . ربما ... اذهب الى الجحيم الان . امامي مهام لا بد من اتمامها .هل سوف اظل هكذا جالسة على هذا المقعد مفكرة في صوته . نبراته . كلماته الحلوة . ماذا قال ؟! قال انه لم يسمع صوتا فيه جمال صوتي منذ ان ولدته امه . ليذهب الى امه الان . ويتركني لاعمالي وحياتي . ليتها لم تلده ... اه لم قلت ذلك ؟!

رنين متقطع ... رنين .رنين .
ـ صباح الخير
ـ صباح الخير اهلا .. اهلا .
ـ ترى هل ازعجتك الان ؟
ـ كلا . لقد كنت في انتظار سماع صوتك .
ـ يا شقي لتتمتع بجماله كما تقول .
ـ ليس فقط لذلك ،ولاقول لك ان الاستاذ احمد الطلياوي ينتظرنا في جروبي في السادسة تماما من مساء اليوم .
ـ اشكرك جدا وسوف اكون هناك في السادسة تماما .
ـ سوف تجديني في انتظارك يا سيدتي .
ـ الى اللقاء .

***

لست ادري هل هذا الذي حدث من ترتيبه ام ان المحامي قد اعتذر فعلا عن موعده . لقد طلبه عامل التليفون وغاب قليلا . وجاء يعتذر بالنيابة عن المحامي . حدث هذا في السادسة والنصف تقريبا. ونهضت ذاهبة الى منزلي في الثامنة . صدقوني . لم اشعر بهذا الوقت الذي مر علينا ، ولا بعقارب الساعة وهي تدور في معصمي . كان لطيفا براقا . كان هو نقطة الارتكاز لعيون الحسناوات الجالسات بجوارنا في الموائد المتناثرة وكانهن كن يردن التهامه . لقد اشرت له اشارة خفية الى تلك العيون المتلاحقة . فجعلت الدماء تكسو وجهه . وقال : انهن يحسدنني على مجالسة ملكة مثلك . سألته لماذا لم يتزوج الى الان ؟ قال اخشى ان اقول لك السبب فتعتقدين انها القصة المؤثرة التي يقولها كل شاب للحسناء التي تسأله . قلت له انا لا اعرف هذه القصة لاني لم اسأل احدا غيرك هذا السؤال . كان يحب فتاة . جميلة . رقيقة . وكانت تحبه . ادرك اخيرا انها كانت تحب معيشته . منظره . طريقته في الكلام . اصابعه السمراء الرفيعة الدقيقة . عربته . وحددا موعد الزواج . وانشغلت اياما قليلة عنه . انشغلت في الاشياء التي تعدها للزواج به . تلك الدوامة جعلتها تنساه قليلا . ظهر لها شاب اخر . عربته افخم . منظره اجمل . طريقته في الكلام احسن . استطاع ان يجذب قلبها . شاركها في انتقاء ما تعده للزواج . وتزوجا . الشاب الجديد وعروسة هذا المسكين .

مالي انا وكل هذا . يكفي ان قلت له ان يجعل المقابلة القادمة مع المحامي في مكتبه . وليس في محل جروبي . كان يجب الا اوافق على المقابلة التي تمت في محل جروبي . اليس للمحامي مكتب؟. لن يحدث مثل هذا بعد ذلك . لقد تحدث اليوم . هذا خامس او سادس حديث عن موعد جديد . يقول جروبي . اقول لا ... المكتب . يريد ان تكون المقابلة للصداقة اولا مع المحامي ثم العمل . لا بل اريدها للعمل فقط. لا اريد صداقات جديدة . انه مشغول جدا في المكتب . ومقابلتنا له في المكتب سوف تكون قصيرة ويعتقد انها ستكون غير مجدية . لا ... لا اريدها في المكتب ولا في اي مكان اخر . لا اريد هذا المحامي . اخاف من الناس . لي وضع خاص يجعل العيون ترقب تحركاتي ومقابلاتي .

تحدث اليوم . وكان لم يتحدث منذ يومين . قلت له اانت غاضب لاني رفضت ان اقابل المحامي قال : لا . اني اعرف ظروفك واقدرها . تحدثنا طويلا . نسينا المحامي . كل شيء في هذه الدنيا التي تحيط بنا تحدثنا فيه الا هذا المحامي ... شهر الان مر باكمله ، تحدثنا فيه ستين مرة . في الصباح انا التي احدثه وفي المساء يحدثني هو . اعرف كل شيء عنه الان . حتى مسكنه اعرف انه مكون من حجرتين في الطابق الرابع عشر من اعلى عمارة على النيل . اعرف اثاثها ومحتوياتها.اعرف انه يفضل دائما منزله عن اي مكان اخر ، ويجلس فيه وحيدا مع كتبه. انه يحب الكتب والقراءة كثيرا . روايات شتاينبك ونجيب محفوظ . وقصص موم القصيرة . مسرحيات بريخت وبيكيت . يقرأ الان مسرحية الاستثناء والقاعدة . قال لي ضاحكا ذات مرة ان كل الشبان يجعلون منازلهم الخاصة حمراء حمراء . هذه هي القاعدة . ولكن انا مع كتبي ولوحاتي وموسيقاي ولا يدخل شقتي غير ذلك ، هذا هو الاستثناء.رائع هذا الرجل . ولكن شيئا ما يخيفني منه . قد تكون مواجهته . في هذه المواجهة اشعر انه سوف يسلبني قولي واشياء اخرى . لن القاه. تكفيني احاديثه في التليفون .

وبعد .. ماذا انا فاعل معها ؟ مكالمات تليفونية فقط . غرامية احيانا بطريقة مستترة ؟ ثقافية احيانا اخرى . فنية في معظم الاحيان. اه اني احب الفن . والجمال ابن الفن . اعشقها تلك الحزينة الجميلة. في جوفي تنين جائع . يصرخ طالبا الطعام . لا يأكل الا ما هو جميل . وحزين !! ها .. ها... ها .. لا لا . لا يجب ان تكون حزينة هكذا . سوف استطيع ان احضرها هنا . واجردها من هذا الحزن .. الملابس السوداء . ولكن متى ؟ وكيف ؟ . شهر الان مر باكمله في احاديث تليفونية فقط ! من من السابقات ظلت هكذا شهرا ؟ لا احد . لا اتذكر. لا بأس اعتقد انها تساوي شهرين . لننتظر .

عشرة ايام مرت ولم يتصل بي . اعتقد انه غاضب . ليغضب هذا لا يهمني . كان يريدني ان اذهب الى مسكنه كي اشاهد اللوحة الجديدة التي رسمها . لقد قال لي سوف انتظرك غدا في العاشرة صباحا حتى تشاهدي اللوحة الجديدة التي رسمتها . عجيب هذا الرجل . كانه كان يطلب شيئا عاديا لا غبار عليه . ويحدث دائما . كيف اذهب الى منزله ؟ قلت له لن احضر . لا انسى انني قلتها له بلهجة غاضبة حتى يعرف من انا جيدا . اه . لو لم يقل انه اسف على ذلك وانهى المكالمة . بطبيعة الحال لم اكلمه في الصباح . وانتظرت بجانب التليفون بعد ذلك ساعات طويلة . واياما . ولم يتكلم . انتبهت الى نفسي وانا احمل التليفون وكدت ان اقذف به الى الحائط . طردت الخادمة لانها تسير في المنزل بطريقة خليعة . ودائما كانت تغني اغاني...لا تليق بمنزل محترم ... نعم نعم . وتشاجرت مع الطباخ فاخذ ملابسه ورحل بلا عودة .واكتشفت انه كان يسرقني . اطفال الجيران اصواتهم عالية وهم يلعبون . لو استطيع ان ادق اعناقهم . ملاعين . ملاعين . هذا العالم كله ملاعين . اكره الجميع .

واخيرا حضرت . ها هي جالسة امامي مستغرقة في النظر الى اللوحة . هذه اللوحة رسمتها في الصيف الماضي قبل ان اعرفها.لقد

سمعت خبطات على الباب ذات طابع مميز . فتحته . وجدتها واقفة تخفي اضطرابها في ابتسامة بلهاء . لم اندهش لحضورها . لانني اعتقد ان الدهشة وليدة الغباء . تفضلي . ادخلي . دخلت . اغلقت الباب بعد دخولها بلا اي شعور جديد انتابني . قالت انها حضرت كي تشاهد اللوحة الجديدة التي رسمتها وحدثتها عنها . ليس عندي لوحة جديدة احدث من هذه اللوحة التي رسمتها في الصيف الماضي ! اشرت لها على اللوحة . ما زالت تنظر اليها . انها تهرب مني بالنظر والاستغراق في هذه اللوحة .

ـ لطيفة ورائعة .. ولكن ماذا تقصد بها ؟

ـ اقصد الذي تفهمينه انت منها .

ـ انا ارى امامي عش عنكبوت ـ ولست ادري كيف رسمت خيوطه لدقتها كانها تهتز على اللوحة ـ وخلفها عين كبيرة . تنتظر شيئا او هي تحدق في شيء معين .. اهي عين انسان ام عين العنكبوت ؟

ـ قد تكون العينين معا !

ـ كان هذه العين هي التي تنسج الخيوط . ولكن هناك بعيدا في اطراف الصورة فراشة وحيدة وجميلة جدا . بلا ازهار وورود وانت تعرف ان الازهار هي مصدر حياتها . لماذا حكمت عليها بالوحدة ؟

ـ قد تحب هي ذلك .

ـ كيف ؟!

ـ حتما سوف تقع الفراشة في تلك الخيوط ان لم يكن اليوم فغدا . وسوف يكون العنكبوت هو زهرتها .

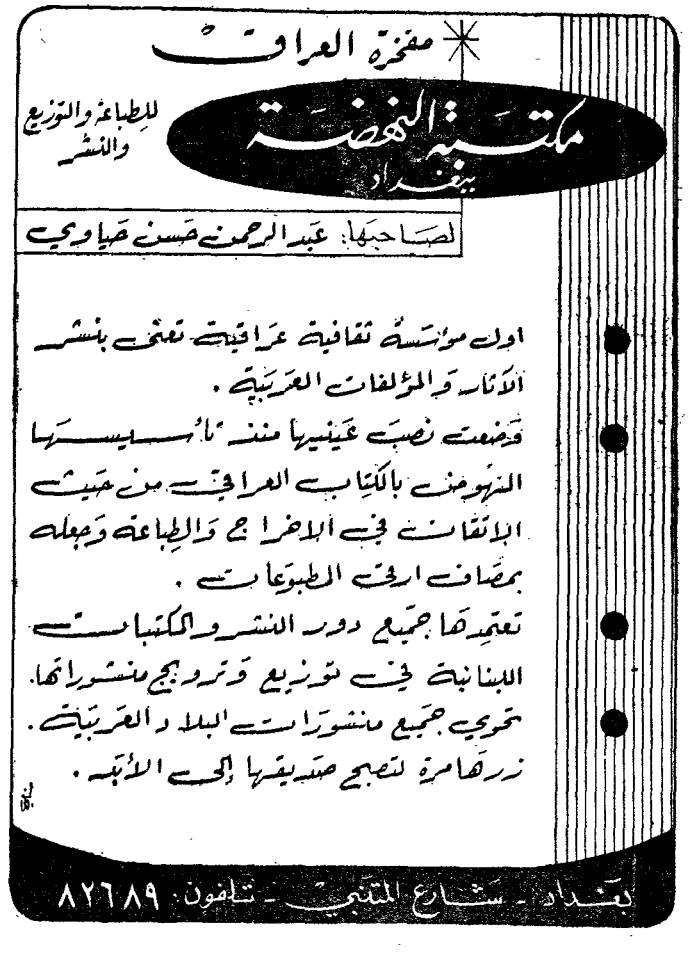

ـ وتقصد ان الزهرة هي التي سوف تمتص الرحيق من الفراشة او قل دماءها طبعا .

ـ قد يكون ذلك .

ـ ولكن هل الفراشة تحب ذلك ؟

ـ الفراشة مثل النساء .

ـ لست افهمك .

ـ وانا احب ذلك .

دعينا من تلك اللوحة الان ولنستمتع بتلك القطعة الموسيقية .

اتفهين الان وانت في عشي ؟ يا من جعلت مني اياس من سلطان نفسي . ملابسك . حزنك . سوف اجردك منها قطعة قطعة . هكذا ارتمي على صدري واغمضي عينيك . ان صدري به اتساع للجميع . انت الان مثل قطة تطلب الدفء وتتسلل تحت غطاء نومي ... ها ... ما هذا ؟ ايتها الفاجرة . ارتدين ملابسك الداخلية في لون الورد . ويرى الناس منك الحزن والسواد . انه خداع يا بنت اللئام . امامي الان هرم من التناقض . تناقض في المشاعر مجسم في ملابسك ، ولكن اشهد لك ان هناك انسجاما في الالوان . قاعدة الهرم امامي هي رداؤك الخارجي اسود من الليل . الحزن والاكتئاب علامته ثم الوان الورود كلها هي ملابسك الداخلية الفرح والحب علامتهما .

لو جعلت ملابسك كلها تمتزج باللون الوردي لكان ذلك افضل . هكذا (صراخ) انهضي ... افتحي عينيك وانظري . النار تأكل ملابسك . سقطت قداحتي عليها . لم اقصد ذلك . كنت اتخيل فقط منظر النار وهي تمزجها بالوردية ... الرماد لا لون له .. كل شيء اخره الرماد .

ملعون هذا الرجل . اي شيطان نفث في هذا الرجل دماءه . جسدي يرتعش الان . كل شريان في جسدي مشدود وكانه وتر كاد ان ينقطع . كل ذرة في كياني تلعنه . اكاد اشعر ان رعشتي هي التي تهز العربة الان في سيرها . يجلس هو بجانبي يقود العربة . كانه لم يفعل شيئا . صامت . نظراته متحجرة على الطريق امامه . كتلة من الصخر والصمت هو . كان شيئا مثل النوم يداعب جفوني وانا بجانبه في منزله . لمسات اصابعه كانت توحي لي بالنوم وكانت تثير جسدي من داخله . لم اشعر الا واصابعه تخدرني . وجهه كان لا يعبر عن شيء . عيناه كانتا من عالم اخر . لست ادري كيف خلعت ملابسي قطعة .. تلو قطعة . اعتقد انه هو الذي خلع عني ملابسي . فجأة رأيت النار تأكلها . كان واقفا يشير الى قداحته وسط ملابسي وهي تنتشر فيها النار بسرعة مذهلة . وكان يهذي بكلمات كالمجنون . كان يريد ان يرى لون الرماد . هكذا قال . لا اتذكر ماذا فعلت انا ؟ يدي بها اثار حروق . يبدو انني حاولت ان انقذ ملابسي . يئست . ارتميت على مقعد وانا حائرة ، افكاري عارية مثل جسدي . الدموع كانت تنهمر من عيوني ولم يكن عندي رغبة في البكاء . هذا الرجل قد يكون اي شيء الا ان يكون انسانا . احضر لي بيجامته وهذا الروب الذي اتدثر به الان ووضعهما امامي بلا اي كلمة . وخرج . وعاد بعد لحظات . قال انه احضر عربته كي يوصلني الى منزلي . خرجت معه . ولكن لم يبد عليه الندم . كانه لم يفعل مصيبة . أكان ينتقم مني ؟ ماذا فعلت له ؟ . كل الذي اتمناه الان ان يحتويني منزلي وتحميني حجرتي واشعر اني بعيدة عن هذا الرجل . عن هذا الشيطان .

لم اقصد ايلامها الى هذا الحد . كانت هناك افكار غريبة تدور في رأسي ، وانا انظر الى ملابسها المتناقضة . وقفت كي احضر علبة سجائري وقداحتي . سقطت فجأة القداحة . ارتفع لهيب النار وخمدت عن رماد . كان الرماد لا لون له . مسكينة هذه المرأة ! خيل الي بعد ان تجردت من ملابسها انها اصبحت رمادا . انا لا احب الرماد .

القاهرة — سعيد سلام